الفصل الثاني

بيروت وضواحيها

عاصمة الجمهورية اللبنانية، مقر المفوض السامي الإفرنسي لدى الدول المشمولة بالانتداب، وبالقاصد الرسولي وبطريرك الأرمن الكاثوليك وبطريرك السريان الكاثوليك ومطران الروم الارثوذكس، ومطران الموارنة، ومطران الروم المتوسط وفي سفح جبل لبنان سكانها نحو ١٢٩ ألف منهم ٣٨ مسلمون سنية و ٤ مسلمون شيعةو ١٩ موارنة و ١٤ روم ارثوذكس، و ٥ روم كاثوليك، و ٢٥ أرمن و ٣ يهود و ١ لاتين وخلافهم.

وخلال الحرب العظمى فإن عدد سكان بيروت انخفض، ولكن بعدها بلغ الرقم المذكور بحكم هبوط كثير من اللبنانيين من قراهم وتوافد الألوف من مهاجري الأرمن.

وتقع مدينة بيروت موقعاً جميلاً على المسند والسفح الشماليين لخرشوم جبل واسع داخل في البحر ينتهي في الغرب برأس يدعى (رأس بيروت) وبيروت القديمة مبنية على ساحل البحر بين رأس بيروت في الغرب، مار الياس في الجنوب والأشرفية في الشرق. أما المدينة الحديثة فقد نمت وامتدت امتداداً عظيماً - ولاسيما بعد الحرب العظمى - فوق الروابي المختلفة المذكورة وعلى طول الشوارع والسكك الطويلة العظيمة الذاهبة نحو طرابلس أو دمشق أو صيدا وأكثر أحياء النصارى في محاذاة طريق طرابلس (شارع النهر) وهي تنتهي بحي الأرمن وأكثر أحياء المسلمين في محاذاة طريق صيدا (شارع البسطة).

وتلقى بيروت القديمة في روع الزائر أنها ورشة عظيمة فحيثما التفت تجد معاول الهدامين تنقض الدور القديمة، وتدك الأسواق والأزقة الضيقة المعوجة التي كانت مظلمة قذرة وغير صحية، فتخلفها دور وعمارات عصرية شاهقة الارتفاع وشوارع مستقيمة عريضة.

وفي بيروت عدد عظيم من الفنادق العصرية الجميلة بعضها من الدرجة الأولى وبعضها من الثانية، وفيها مالا يسعه الحصر من البانسيونات والمطاعم والمقاهي

والحانات والمسارح ودور السينما والنوادي وأماكن سباق الخيل في حرج الصنوبر وصيد الحمام والتنس والمستشفيات والمصارف والحمامات البحرية ومرائب السيارات، وتمتد خطوط الترامواي من شمالها إلى جنوبها من المنارة إلى فرن الشباك ومثله من الحرج إلى ساحة البرج ومن شرقها إلى غربها من النهر إلى الوسط القديمة، وفيها كنائس كبيرة وصغيرة لجميع الملل والنحل، وللمسلمين جوامع عديدة، وسط في ضخامتها، منها القديم منذ قرون والجامع الكبير العمري، وجامع السرايا وجامع النوفرة ومنها الحديث منذ نصف قرن أو أكثر كالجوامع العديدة في أحياء البسطة الفوقى والتحتى والحرج والمصيطبة ورأس بيروت وعين المريسة والدباغة والمجيدية، وفيها مستشفيات عديدة منها مستشفى للأميركان وآخر للإفرنسيين وآخر للألمان ولطوائف الروم والموارنة والمسلمين ناهيك المستشفيات الخاصة لبعض كبار الأطباء، وفيها متحف أثري بني له دار حديثة في حرج الصنوبر ودار كتب كبرى، ناهيك بالمكتبتين العظيمتين كل من الأميركية واليسوعية، وعشرات من المطابع والجرائد اليومية والأسبوعية، وهي تقسم إلى ثلاث عشرة محلة، ولها مرفأ.

التاريخ ـ سنة ١٣٠٥/١٨٨٧ والتي يعود تاريخها إلى أواخر القرن ٤ ق.م وقد كانت بيروت تؤلف مع جبيل أحد المركزين الأصليين للفنيقيين ثم ضربت سنة ١٤٠ ق.م خلال المعارك التي نشبت بين تريفون وانطيوخوس السابع وكانا يتنازعان الملك وبقيت خراباً ٧٥ سنة.

وفي عهد الرومان استولى عليها أغريبا وأسكن فيها الجنود الذين أنهوا خدمتهم في الفرقتين الخامسة المكدونية والثالثة الغالية، وجملها بكثير من المباني، ثم أعطاها اغسطوس قيصر حقوق المدن الرومانية الأصلية وسماها باسم ابنته جوليا أوكوستافليكس بريتوس وشاد هيرودوس الأكبر فيها وأخلافه هياكل وحمامات ومسارح ومدارج عظم شأنها وكثرت عمارتها.

ومنذ أواسط القرن الثالث ٢٢٢ فتحت في بيروت مدرسة لتدريس الحقوق ذاع صيتها بعد في كل بلاد الشام وصارت تباري مدارس أثينا والإسكندرية وقيصرية، وكانت تلقب حينئذ بمدينة العلاء، وفي أواخر القرن الرابع ظلت بيروت في مكانتها

تعد من أجل مدن الساحل الفينيقي ونفذت إليها النصرانية مباشرة فصارت كرسي أسقفية وفي أوائل القرن الخامس كان فيها تجارة عظيمة للحرير ومعامل لنسجه.

وفي سنة ٥٥١ حدثت فيها زلزلة هائلة دكت حروبها ومبانيها وارتفع وقتئذ البحر ارتفاعاً مدهشاً فجائياً اجتاح كل مدن سواحل الشام ومنها بيروت فهلك بذلك ٢٥٠ ألفاً من سكانها.

ومن ثم نقلت مدرسة الحقوق إلى صيدا، ومعامل الحرير التي عليها كان اعتماد ثروة بيروت ضعفت، ثم نقلت إلى بلاد اليونان، وفي سنة ٦٠٠ كانت بيروت خراباً، فجاءها المسلمون واستولوا عليها صلحاً سنة ١٣هـ وأهم أحداثها في العصور الإسلامية الأولى تنحصر في أن الروم البيزنطيين كانوا يغيرون عليها بأساطيلهم من البحر كلما احتلوا غرة من ضعف المسلمين جرى في سنتين.

ولعبت بيروت بعض الأدوار في تاريخ الصليبيين، وجعلت في عهدهم مركز اسقفية لاتينية، وحوصرت مرتين الأولى تلك التي تمكن بها بودوين الأول من فتحها سنة ٥٠٥هـ/١١١٠م وأظهر فيها المحصورون والمحاصرون كل الاستبسال، والثانية تلك التي قام بها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وفتحها.

وبعد ست سنوات جاء عموري ملك قبرص الصليبي وحاصرها واستخلصها من أيدي المسلمين، ووجد فيها الصليبيون غنائم عظيمة و ٩٠٠٠ أسير نصراني لقوا الخلاص آنئذ لكن هذا لم يدم لهم، فقد أعاد المسلمون في عهد المماليك الكرة عليها سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وفي القرن ١٤ أغارت أساطيل الإفرنج مراراً على بيروت، وقصفتها ونهبتها وضربتها وأخصها في ذلك الجنويون سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وقيل ١٣٣٣ م وفي القرن ١٥ حظي مرفأ بيروت بازدهار سلمي، فقد دخله الإفرنج لا حرباً بل كتجار وصارت بيروت من يومئذ ملتقى كل أمم البحر المتوسط.

وفي القرن ١٥/١٦ جاء العثمانيون في قيادة السلطان سليم واستولوا على بلاد الشام ومنها بيروت وجعلوها مركز سنجق. إلا أن السلاطين العثمانيين الذين كان همهم الوحيد جباية الضرائب فقط، تركوا بيروت كغيرها من مدن القطر الشامي تحت إدارة أمراء محليين كان لهم شبه استقلال. أخصهم بني عساف، وقد بنى أحدهم عساف الجامع المعروف باسمه، والمعنيون وأخصهم وكان اسمه الأمير فخر

الدين الثاني ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م - ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م انتهز وقتئذ هذه الفرص وأسس لنفسه مملكة شبه مستقلة حتى أنه ارتبط مباشرة بعلائق تجارية مع دول أوروبا ولا سيما مع البنادقة وجدد بناء برج الكشاف الذي هدم في سنة ١٨٨٠م اعاد هذا الأمير لبيروت حيويتها القديمة إلا أن الترك اضطربوا من نفوذ فخر الدين المتزايد فضربوا جيشه في صفد ثم اعتقلوه هو وقادوه إلى استانبول وصلبوه، وتعاورت بيروت أيدي الباشوات العثمانيين إلى أن تولاها الأمراء الشهابيون فعمر هؤلاء فيها قيساريات وأبراجاً عديدة.

وفي القرن ١٢هـ/١٨م كان الأمير ملحم الشهابي، وقد اهتم هذا بالتجارة وحاول أن يجعل في بيروت مرفأ ذا شأن إلا أن أحمد باشا الجزار والي عكار أضر بيروت ضرراً قاضياً، باتخاذه عكار مرفأ وبتحصنه فيها إلى أن حاصره الأمير بشير الشهابي مدة أربعة أشهر من البر والأسطول الروسي من البحر بإشارة ظاهر العمر، ولكن بعد وفاة الجزار في عكار في سنة ١٨٠٤ نهضت بيروت من كبوتها في عهد الأمير بشير الشهابي، فقد بسط هذا لواء الأمن في كل لبنان وأعاد إليه ازدهاره. وسقطت بيروت برهة من الزمن في حكم المصريين في عهد محمد علي باشا (سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م) وجاء الأسطول التركي، الإنكليزي المناوئ وقصف بيروت واستخلصها من يدهم في ١٠ تشرين الأول سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وهدم أكثر أبراجها وأسوارها.

وبعد حوادث سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م هبطت بيروت جموع كثيرة من نصارى دمشق ووادي اليتم وجبل لبنان موارنة الجبل واستقروا فيها، واستفحل عمرانها ونمت تجارتها من ذلك التاريخ بحكم ازدياد سكانها، وبعد أن كانت بيروت تتبع إيالة صيدا نقل إليها الإيالة في سنة ١٢٥٦هـ تبعت دمشق قاعدة ولاية سورية منذ سنة ١٢٨١هـ.

وفي سنة تشرين الأول ١٣٣٧/١٩١٨ دخلت جيوش الحلفاء مدينة بيروت، وفي ٢٥ نيسان ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م عهد مؤتمر سان ريمو إلى فرنسا بالانتداب على بلاد الشام، فصارت بيروت من يومئذ قاعدة الجمهورية اللبنانية ومركز المفوض السامي الإفرنسي.

المناخ - إن مناخ بيروت بحري بحت، وهو جد لطيف ولاسيما في الشتاء، ومعدل الحرارة في البرد المشهور نحو ١٣,٦ ، ولا يهبط الميزان فيها إلى تحت الصفر قط. أما الصيف في شهري تموز وآب فقلما تتجاوز درجة ٣٣ لكنه ثقيل الوطأة، بحكم جوها المشبع بالبخار وعدم اختلاف درجات الحرارة لا في الليل ولا في النهار ولا يلطفه إلا هبوب الرياح البحرية المنعشة. والمطر يهطل فيها من ١٥ كانون الثاني إلى ١٥ آذار، وكثيراً ما يكون تهطاله بغزارة وشدة، ومعدله السنوي حسب أرصاد الجامعة الأميركية ٩١٤ وقد يبلغ متراً وربع المتر وقد يهبط إلى أدنى درجة وهي ٥٨٣مم أما ماء بيروت فهو من أصح مياه مدن الشام.

معاهد العلم - اشتهرت بيروت بكثرة مافيها من معاهد العلم التي يتقاطر إليها الطلاب من كل أنحاء الأقطار العربية والشرقية. ففيها جامعتان الأولى إفرنسية باسم القديس يوسف، بإدارة الرهبان اليسوعيين وهي في حي الصيفي شرقي طريق دمشق، والثانية أميركية بإدارة المبشرين البروتستانتيين الأميركان. أسست الأولى سنة ١٨٧٥ وفيها عدة كليات، بعضها للفلسفة والإلهيات، وبعضها للحقوق، وبعضها للطب بفروعه المختلفة، هذا عدا عن فروع التعليم الثانوي، ومن لواصق هذه الجامعة المرصد الجوي في كسارا (البقاع) ودار الكتب الشرقية وهي من أغنى دور الكتب بالمطبوعات والمخطوطات العربية في شتى المواضيع ولاسيما في علوم التاريخ والدين.

أما الجامعة الأميركية فقد أسست سنة ١٨٦٦/١٢٨٣ وكان اسمها (الكلية السورية الإنجيلية) وهي في رأس بيروت، ذات بنايات ضخمة شاهقة عددها ٤٢ ممتدة على مسافات شاسعة تتخللها غابات جميلة مشرفة على الساحل من علٍ وهي تضم أقساماً عديدة ابتدائية وثانوية وكلية آداب وفنون وأخرى تجارية وأخرى طبية مع فروع ومستشفيات عديدة، ودار كتب كبيرة ومتاحف عديدة للعاديات والنباتات والحيوانات والمعادن. ومرصد فلكي وجوي وبناء خاص لمختلف الألعاب الرياضية.

وفي بيروت مدارس ثانوية أجنبية أخرى أهمها للذكور مدرسة البعثة العلمانية الإفرنسية، ومدرسة أخوة القلب (الفرير) الأقدس وللبنات عدة مدارس للراهبات المنتسبات لجمعيات مختلفة، ومن المدارس الأهلية المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك ومدرسة الحكمة للموارنة، وللمسلمين مدرسة ثانوية راقية في الحرج

بإدارة جمعية المقاصد الخيرية، ومدارس ابتدائية عديدة بإدارة هذه الجمعية أيضاً منتشرة في مختلف الأحياء، كما يوجد لإدارة المعارف ولمختلف الطوائف والنحل أيضاً مدارس ابتدائية كثيرة فبيروت في الجملة (مدينة العلم وبحث) وفيها مطابع عديدة أقدمها مطبعة الأميركان، ثم مطبعة اليسوعيين وعشرات من الجرائد السياسية وتكاد تعد متخمة بكثرة الجرائد.

المرفأ ووسط المدينة - يستحق المرفأ زيارة، وهو واسع تبلغ مساحته قبل توسيعه الأخير ١٦ هكتارا وعمقه ١٤ متراً فإذا وقف الزائر على الرصيف المجاور للمصرف السوري يرى مشاهد تستحق التصوير، فهناك البواخر الضخمة والسفن الشراعية الكثيرة قد انتصبت صواريها ومداخنها وأشرعتها، وراء ذلك أطوار لبنان الشاهقة الخضرة النضرة التي عند الغروب تكتسب ألواناً فتانة.

والمرفأ الحالي بإدارة شركة إفرنسية ذو جدار ضخم طوله نحو ٨٥٠ متراً يمتد من الغرب إلى الشرق يسع نحو ١٥ باخرة وهم مابرحوا منذ بضع سنوات يوسعونه إلى جهة الشرق، فقد عرضوا جداره الثاني الجنوبي الشمالي ونقلوا إليه الكرك ومستودعاته الضخمة واتخذوه قاعدة عسكرية، وهذا المرفأ كان ومايزال أجل مركز تصدير واستيراد للقطر الشامي كله، لولا أن مرفأ حيفا الحديث قد زاحمه منذ بضع سنوات وأهم السلع الصادرات هي بحسب الترتيب الحرير الخام (إلى فرنسا) والصوف الخام (إلى فرنسا وانكلترا) والجلد الخام الجاف إلى انكلترا وفرنسا والفواكه الطرية والمجففة والعنب إلى مصر والزيت وخشب السوس .. الخ وأهم السلع الواردة هي القطن والحبوب والمنسوجات الحريرية والصوفية والخشب والبن والرز والحطب والفحم الخشبي والحجري، ومواد البناء، والسيارات.. الخ.

وفقدان التوازن بين الصادر والوارد بارز ومؤسف، لولا أنه يعوض بما يرد من النقود من المهجر والمهاجرين في البلاد الأميركية وغيرها، ومن السياح والجنود والمصطافين.. الخ.

وينشأ من المرفأ شارعان أساسيان متوازيان حديثان، الأول باسم اللنبي والثاني باسم فوش وهما يصعدان من الشمال إلى الجنوب. ويتصلان بعد قليل بشارع رينانـد الممتد من الشرق إلى الغرب أمام الجامع الكبير وفي هذه البقعة المحاطة بالشوارع

الثلاثة اكتظت البنوك ووكالات البواخر ومكاتب كبار التجار والوسطاء. ومحور الحركة والسعي والضوضاء في مدينة بيروت هو حول شارع ريناند المذكور وحول امتداده في الغرب الذاهب نحو باب ادريس ونحو رأس بيروت، وامتداده في الشرق الذاهب نحو ساحة البرج وطريق النهر، وثمة أسواق وشوارع عديدة تفضي هذا الشارع كسوق الطويلة وسوق الجميل وهما قديمان، وسوق المعرض وهو حديث، وفي هذه الأسواق والشوارع ازدحمت المخازن والحوانيت الأنيقة الملآنة بمختلف السلع والمنسوجات الإفرنجية وقامت على جانبيها عمارات شاهقة ذات طبقات وحجرات كثيرة يحتلها ذوو الحرف المختلفة، وكل هذه الشوارع والعمارات الحديثة ـ ماعدا سوق الطويلة وسوق الجميل وما حولهما ـ إنما بنيت بعد الحرب العامة بعد أن دكت قبيل تلك الحرب وخلالها، الأحياء والأزقة القديمة التي كانت هنا. لهذا لم يعد هواة الآثار والمباني التاريخية يجدون في بيروت إلا القليل مما يرغبونه من تراث الأقدمين، فقد اختفت بيروت القديمة ذات البوابات والخانات والحوانيت المفقودة والبيوت والأزقة والسبابيط الضيقة المزدحمة العفنة مما أدركه كهول زماننا وبعض شبانه، ولم يبق منها الا النذر اليسير الذي يوشك أن يزول أيضاً.

فقد كانت بيروت حتى أواسط القرن ١٣ هـ محصورة ضمن سور له أربعة أبواب ظلت واقفة إلى ١٣٣٠هـ أسماؤها بوابة يعقوب، بوابة الدركة أو الدركاه، بوابة السرايا، بوابة إدريس، ثم امتد العمران حتى تجاوز في الجهة الشرقية نهر بيروت وفرن الشباك وفي الجهة الجنوبية الحرج وأنحاء الغبيري حتى سفوح لبنان، وفي الجهة الغربية كل آكام رأس بيروت ورمال القنطاري والزيدانية فقد زالت كل آثار الفينيقيين، أما آثار الرومانيين فقد صادفوا منها خلال حفر الأساسات للعمائر الشاهقة الحديثة على بعض الأنقاض، مثل بقايا الهيكل الروماني الذي وجدوه في مدرسة راهبات المحبة والأعمدة الرومانية المنسوبة للأربعين شهيد قرب الكاتدرائية المارونية وغيرها من الأعمدة التي وجدت منذ عهد قريب في شارع اللنبي، كما وجدوا في أنحاء رأس بيروت كهوفاً مقبرية وقطع فسيفساء وتوابيت.

والبناء الأثري الوحيد الذي يستحق الزيارة في بيروت هو الجامع الكبير، فبابه الشمالي في شارع ريناند وبابه الغربي الأصلي في شارع المعرض وكان هذا الجامع في الأصل كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان للفرسان الاستماريين.

لما فتح الصليبيون بيروت بعد حصار شديد سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م أقاموا فيها أسقفية لاتينية، ثم شرعوا من سنة ١١١٣/٥٠٧ إلى سنة ١١٥٠/٥٤٥ يبنون هذه الكنيسة في مكان بناء بيزنطي، وهذا أيضاً قام مكان هيكل وثني وكرست هذه الكنيسة للقديس يوحنا المعمدان أو النبي يحي ويعتقد المسلمون وكذلك النصارى أن هذا الجامع يحتوي على ناووس فيه يمر النبي المشار إليه، يد هذا الناووس مستند على الجانب الأسفل الشمالي وقد وضع المسلمون هذا الناووس وسط تابوت من الخشب المصبوغ باللون الأخضر وحفظوه وسط بناية صغيرة، مسدودة بقفص من الحديد.

ومخطط الجامع يحتوي على ثلاث حنايا، فالوسطى قد مدت بعقد قصير جداً ويحتوي على صحن ذي خمسة عقود وعلى مكان مغطى غربي في محور الصحن بابه ربما كان قطعة من بقايا الكنيسة البيزنطية. ويلحظ الناظر إلى داخل الجامع وخارجه أن الصليبيين قد استعملوا كثيراً وعمداً تيجان الأعمدة البيزنطية والوثنية، ففي يمين الحنية جرن معمودية صغير مازال يحتوي على كتابة يونانية.

وإذا خرج الزائر من الباب الشرقي الصغير يلحظ في خارجه مجموعة الحنايا التي يدل مظهرها على أنها إفرنسية بحتة ومن طراز مقاطعة (اوفرني) خاصة، الواقف أمامها.

وقد حول المسلمون هذه الكنيسة سنة ١٢٩١/٦٩٠ إلى جامع وطرشوها وشوهوها سيئة فقد طلوا الداخل بطلاء كلس ثخين وهم الذين فتحوا البوابة المتجهة نحو باحة الجامع والباب الصغير المثقوب في قعر الحنية كما أنهم هم الذين رفعوا المئذنة الحالية.

وإذا ظل سائراً في شارع يصل إلى جامع السرايا، وهذا أيضاً مبني مكان كنيسة صغيرة للصليبيين باسم المخلص، وفي الروايات إن هذه الكنيسة بنيت مكان كنيس يهودي، وأن اليهود كانوا قد حفروا فيها صورة المسيح المصلوب، إلا

أن هذه الصورة قد أحدثت بعد خوارق حملت كل اليهود على أن ينتصروا وأن يحولوا كنيسهم إلى كنيسة أما الجامع الحالي فليس فيه فائدة أثرية، فهو لا يحتوي على أي قسم قديم ولكن الكهف المقبري الذي تحت مبانٍ قديمة فهي قبر جميل من بناء العرب قبل الاستيلاء الصليبي.

ويصل شارع الممتد إلى ساحة البرج نسبة لبرج اسمه الكشاف كان في شرقيها ويسميها الإفرنج ساحة المدافع وسميت بعد الحرب العامة ساحة الشهداء، وهي الساحة الكبيرة الوحيدة في مدينة بيروت، في وسطها حديقة عامة مستطيلة فيها أشجار غريبة ضخمة جميلة، وفي أولها السراي الصغيرة ودار الحكومة اللبنانية المبنية في عهد العثمانيين لما كانت بيروت مركز متصرفية من أعمال ولاية دمشق، وثمة حول هذه الساحة بنايات شاهقة ذات عدة طبقات، بعضها فنادق أو مسارح لهو ومقصف وسينما، وتحت البنايات مطاعم ومقاهٍ واسعة عديدة وحوانيت لباعة الحلويات البيروتية الشهيرة وغيرها، ولا تنقطع حركة الذاهبين والآيبين وضجيج الحافلات والسيارات والمركبات وضوضاء المسارح والمقاهي والملاهي إلى مطلع الفجر، فساحة البرج هذه هي مركز المتعة والسمر والسهر لرواد هذه الأمور في بيروت.

وفي طرف حديقة هذه الساحة تمثال من الحجر نصب سنة ١٩٣٠ عليه امرأتان أحدهما مسلمة والثانية نصرانية وحدتا أيديهما فوق رمز الكأس الذي كان يستعمل لحفظ رماد أجسام الموتى المحروقين، وهذا التمثال السقيم في نحته ورمزه وضع لتذكار الشهداء الذين صلبهم الطاغية التركي أحمد جمال باشا سنة ١٩١٦.

ويتفرع من ساحة البرج ثلاثة شوارع رئيسية: الأول إلى الجنوب ويدعى طريق الشام وهو مبدأ الطريق من بيروت إلى دمشق، والثاني إلى الشرق ويدعى (شارع طريق النهر) وسموه أخيراً شارع غورو وهو مبدأ الطريق الذاهب إلى طرابلس. والثالث إلى الغرب وهو الذاهب نحو ساحة السور (عصور) ونحو طريق البسطة وصيدا ونحو السراي الكبرى التي كانت في الأصل برجاً من الأبراج المدافعة عن بيروت ثم جعلت الجنود العثمانيين ثم جعلها الوالي التركي الهمام عزمي بك في أول سنة الحرب العامة سراياً لحكومة ولاية بيروت وجاءت المفوضية الإفرنسية بعد الاحتلال

فاتخذتها مقراً لدوائرها ونوصي الزائر أن يصعد نحو السراي المذكورة ويتجول في الساحة الفسيحة التي بينها وبين قصر العدلية التي أمامها وقد كان هذا في الأصل مستشفى الجنود العثمانيين ومن قبله برجاً حربياً، وثمة في تلك الساحة برج ساعة سامي الارتفاع ظريف البنيان، بناه وإلى بيروت سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.

وفي هذه الساحة يطل المتحول على مدينة بيروت والبحر الذي يغسل أقدامها وجبل لبنان المحيط بها، فيرى مشهداً عجباً جامعاً بين بدائع الطبيعة وجمال الحضارة العصرية. وفي شمالي هذه الساحة درج يهبط نحو باب إدريس وهذا الباب ملتقى شوارع عديدة وفيه حركة وصخب، ويهبط إلى مقبرة إسلامية باسم السنطية، وفي غربها على ساحل البحر جادة عريضة نزهة سموها بعد الحرب (جادة الإفرنسيين) ونصب فيها بناء بلدية بيروت تذكاراً لتمجيد الجنود البرية والبحرية الإفرنسيين الذين جاءوا إلى هذه الديار، وثمة نوادٍ وفنادق ومسارح عديدة فخمة، ومنتزه مسائي جميل لسكان هذه الأحياء من أجانب ووطنيين، يمتد حتى عين المريسة وطريق رأس بيروت المحاذي للبحر.

وفي وسط مدينة بيروت بين الجامع الكبير وساحة البرج، قسم قديم لم تصل إليه يد الهدم والتعديل بعد يحتوي على عدة أسواق شرقية الطراز، على أن هذه ليست عريقة في القدم كالتي هدمت، بل هي من العقد الأخير للقرن الهجري الماضي. فمنها غربي ساحة البرج سوق معقود مبلط للصاغة والجوهريين، وسوق آخر أقل إتقاناً من الأول باسم (النورية) مار جرجس لباعة الأحذية وآخر باسم سوق أبو النصر للبدالين وآخر باسم سوق سرسق للدلالين وباعة الأقمشة الإفرنجية والعربية المختلفة والأثاث والثياب القديمة. وغربي الجامع الكبير البقية الباقية من سوق البازركان، الضيق المتعرج المسقوف بعضه، وهو نموذج ما كانت عليه أسواق بيروت القديمة قبل الحرب العامة، وفيه حوانيت صغيرة كثيرة للعقادين وباعة القمصان والمطرزات والأسورة وضفائر الحرير والقطن وأمثالها وقرب هذا السوق جامع النوفرة وله مئذنة مثمنة الأضلاع وعدة قباب بيض. وثمة خان الحرير الذي كان مختصاً بتجار حرير الخام والملون، وحول باحته رواق ذو أقواس، وقد اتخذت الآن مقهى مكشوفاً.

المتاحف ـ الأول متحف الآثار القديمة الأهلي اللبناني ـ هو الآن غربي بوابة إدريس ويبنون له بناءً فخماً خارج البلدة في طرف حرج الصنوبر ويضم الآثار الملتقطة من أطراف الجمهورية اللبنانية وفي أبهائه وحديقته كثير من النواويس والتماثيل الحجرية والمصابيح والكؤوس والاواني الخزفية المدهونة الفينيقية واليونانية والرومانية، والقلائد والعصائب والحلي الذهبية والفضة المستخرجة من الجبل، وكلها مما يستحق الزيارة والإمعان.

الأحياء الخارجية ـ بعد أن كانت مدينة بيروت حتى أوائل القرن الهجري الماضي صغيرة مكتظة ومنحصرة وراء السور الضيق المحيط بها، لا ينفذ سكانها إلى الخارج إلا من بوابات اندثرت الآن كلها كبوابة يعقوب وبوابة إدريس وبوابة الدركة.. انفرجت بعد سنة ١٢٥٥ أو ١٢٦٠ هـ وبدأ عمران الأحياء الخارجية كالباشورة والبسطة والمصيطبة والمزرعة ورأس النبع وزقاق البلاط وبرج أبي حيدر والصيفي والرميلة والأشرفية والمزرعة ورأس بيروت ومنية الحصن وعين المريسة والمدور، وازداد ذلك بتقدم حركة التجارة التي كانت بيروت تصدرها إلى كل أنحاء القطر الشامي وما وراءه من البلاد العربية، وبازدياد عدد السكان الهافتين عليها من أنحاء لبنان وغيره، ونمو ثروتهم وترفهم، واستفحل ذلك العمران بعد الحرب العامة حتى عم حي الرمل الذي أدركناه سنة ١٩٠٥ وكان قاعا صفصفاً وبلغ قرب دير مار الياس والغيدة في الجنوب وعم ظهور الأشرفية وأنحاء الخضر في الشرق وكل ظهور رأس بيروت إلى قرب صخور الريشة. وكل هذه الأحياء الحديثة مبنية فوق تلعات ذات مدارج فتانة، ملئت بصروح ودور من أضخم وأجمل ما أوجده فن العمارة الحديث. وكلها قد أحيط بالحدائق البهيجة ذات الأشجار والرياحين النضرة الفواحة، وحيثما ذهبت تجد مناظر ومشاهد تدل على رغد وترف وما يجره من ضعف الروح الوطنية والقومية وتعدد النزعات والميول، والتهافت على جني المادة وإشباع النهمة كيفما كان المصدر وكانت الوسيلة، وإن ستر بعضها قسم غير يسير من الضنك أو الإشراف بحكم الأزمات الاقتصادية التي توالت في السنوات العشر الأخيرة. وأجل الأحياء ترفاً وحسن بناء منية الحصن ورأس بيروت ومار الياس والمصيطبة والأشرفية والرميلة.

ويغلب على أهالي بيروت النزق وسرعة الانفعال، والحرص على الوقت والنقد، والاندفاع نحو أبواب التجارة والمرابح الجزيلة، والتأنق في اللباس والرياض.

الجوامع - الجامع العمري الكبير جامع السرايا. (جامع النوفرة) وسط المدينة وغربي سوق البزركان، وهو يشبه جامع السرايا ببنائه، بناه الأمير منذر بن سليمان التنوخي من الأمراء المعنيين في القرن ١١ هـ. (جامع الدباغة) واقع في الميناء، مرتفع عن الأرض يصعد إليه بدرج، وطابقين، ومئذنة جميلة، جدد تجديدا متقناً منذ عهد قريب. (الجامع المجيدي) في منتهى سوق. البناء في كل من أحياء المصيطبة ١٣٠٢ والبسطة الفوقا ١٣١٢ والبسطة التحتي ١٢٨٢ ورأس النبع ١٢٩٩ وبرج أبي حيدر ١٣١٨ وزقاق من البلاط ١٢٧٧ والأشرافية ١٢٦٦ وعين المريسة ١٣٠٥ والروشة ١٣١٨ والمنارة ١٣١٨ والقنطاري ١٣٢٢ والزيدانية ١٣٢٦ والحرج ١٣١٧.

أما الكنائس الكبرى في بيروت فكثيرة أشهرها لطائفة الموارنة كاتدرائية مار جرجس أمام العازارية وفي ساحة البرج وساحة السور، ولطائفة الروم الأرثوذكس كاتدرائية مار جرجس في الغورية سوق الكنيسة خاصتها، وللروم الكاثوليك كاتدرائية مار الياس في سوقها الخاص المتصل بسوق سرسق، وللبروتستانت الكنيسة الإنجيلية الأميركية في طريق زقاق البلاط.

ولكل من الطوائف عدة جمعيات خيرية ومدارس أهلية ابتدائية وثانوية ولبعثات التبشير الأجنبية والأميركية مدارس وكليات عديدة يضيق نطاقنا عن تعدادها.

كما يزار في رأس بيروت الجامعة الأميركية التي تقدم ذكر مكتبتها ومدارسها ومتاحفها العديدة التي تستحق الزيارة، وفي هذه الجامعة ساحات فسيحة شاسعة ملئت بأشجار وغابات غريبة المنشأ والشكل، ومناظر خلابة نحو مدينة بيروت وخليج جونية وأعضاد لبنان وقمة جبل صنين.

وإذا جاوزنا الجامعة نحو الغرب يصادف بعد آخر خط الترامواي في الكم ٢.٧٠ (المنارة) وهذه يصل نورها إلى مسافة ١٦ ميلاً، وعلوها ٣٠ متراً، وهي مبنية فوق أعلى رأس بيروت. ثم يهبط الطريق منها إلى الساحل، حيث الصخور الكثيرة والخلجان الصغيرة العديدة والبحر الضخم ومشهد الغروب البديع والمقاهي وعمارات البحر الخشبية، وقد كان هذا الساحل منتزه سكان بيروت يغدون إليه في

المركبات والسيارات الفخمة للتمتع بهوائه الطلق وبغروب شمسه الرائع. ومن ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب بمحاذاة الساحل ويصعد أكمة شاهقة الارتفاع منتصبة فوق البحر عليها عدة مقاهٍ خشبية جميلة وأمامها صخرتان عظيمتان منفصلتان في أحد زلازل العصور القديمة عن الأكمة المذكورة، قد حملت الأمواج محفلها وفتحت فيها مغاور تسمى بمغارة الحمام، ويسمي البيروتيون هذا الموقع (الروشة) ويمكن لمن شاء أن يركب زورقاً ويزور المغاور المذكورة، فإحداها كبيرة (ذرعها ١٥×٤٠ متراً وعلوها ٢٠ متراً) والثانية مؤلفة من تجويفين والثالثة ليست الا نفقاً ضيقا ووراء المقاهي المذكورة ملعب عسكري حديث.

على رغد العيش وترفه، وعلى شدة تعلق البيروتيين عامة بحضارة الإفرنج وأطوارهم وبما تقتضيه هذه الحضارة من الإسراف في الأثاث والرياش واللباس والطعام والشراب والمعاشرة والمقامرة والمراطنة. وغالى النصارى منهم في السير في هذا التيار وأولعوا بتلك القشور دون سواها من لباب الغرب ومحاسنه فبعدوا عن الشرق أو ضاعوا بين الاثنين، هجروا الأول ولم يبلغوا الثاني. وقد أدى الآخر في تلك الأمور إلى وقوع كثير منهم في ضغاء المال والخلق وجاءت الأزمان الاقتصادية منذ سنة ١٣٤٧/١٩٣٠ تجر عليهم ويلاتها فكثر المفلسون من التجار.

بعد أن كانت قائمة على قدم وساق بين سنتي ١٩١٩/١٩٣٠ ووقعت أكثر المباني الحديثة فريسة الرهون في المصارف الأجنبية وركدت ريح البناء والإنشاء وصل الوجوم مكان النشاط، أما مسلمو بيروت فإنهم رغم التيار والضنك المذكورين اللذين القيا أيضاً جرافهما عليهم وغير كثيراً من سجايا ناشئتهم فإن كثرة كهولهم وشيوخهم ماتزال محتفظة بفطرتها وحميتها الإسلامية تحاول الاحتفاظ بهما وتسعى لبثهما بين ناشئة بيروت نفسها بواسطة المدارس العديدة التي لجمعية المقاصد الخيرية، وهي أقدم الجمعيات الخيرية الإسلامية في القطر الشامي، وبين ناشئة القرى الإسلامية القاصية والدانية في أرجاء الجمهورية اللبنانية بواسطة المدارس الأولية التي أنشأتها جمعية تعليم فقراء المسلمين في القرى في سنة ١٣٤٧.

الطواف حول بيروت ـ يستحسن أن يدور الزائر في الأماكن التي سنذكرها، مما يستغرق نحو ١٦ كم فيبدأ من ساحة البرج ويتجه في السيارة نحو رأس بيروت ماراً بالشوارع التي سموا أكثرها بعد الاحتلال بأسماء رجالات إفرنسيين وغيرهم كشارع ويفند (وهو جنرال افرنسي جاء مفوضاً سامياً إلى القطر الشامي سنة ١٩٢٤ وعمل على تجزئته، وشارع جورج بيكو الذي ينسب إليه اتفاق سايكس ـ بيكو جاء على تقسيم بلاد الشام، وشارع بلس (وهذا اميركي مؤسس الجامعة الأميركية وعميدها الأول)، إلى أن يصل بعد ٢ كم إلى الجامعة الأميركية التي تستحق الإعجاب والزيارة بوسعها وضخامة مبانيها، وفيها المدارس والمتاحف العديدة والمكتبة التي تقدم ذكرها في هذه الجامعة. ويستمر الطريق في محاذاة الساحل، تاركاً البحر على يمينه وكثبان عالية من الرمل على يساره قد امتلأ من عهد قريب بالصروح والقصور بعد أن كان صفصفا وفي قمة هذا الكثيب منظر ممتد جميل يتجه في الجنوب نحو سهل بئر حسن ومقام الإمام الأوزاعي، ومحطة البرق اللاسلكي وطريق صيدا ثم يصل الطريق إلى دير مار الياس بسطيخا المبني فوق مغارة اتخذت كنيسة زعموا أن النبي الياس أقام فيها في زمنه وبعد أن كان حول هذا الدير فضاء لا ترى فيه سوى كثاف الرمال ومقالع الحجارة أصبح ملآناً من عهد قريب بكثير من الثكنات والمنشآت العسكرية الحديثة للجيش الإفرنسي، ومدت الطرق والشوارع الجميلة نحوه فعمر ومن هناك إذا شاء الزائر الرجوع إلى المدينة ينحرف إلى اليسار فيمر من أمام مباني السجون العامة في شارع مار الياس نحو المصيطبة وزقاق البلاط أو ان شاء يتقدم ويأخذ شارع برج أبي حيدر، أو يتقدم ويستمر في الطواف حول المدينة تاركاً على يساره حي المزرعة أي الحرج وطريق الشام وحرج الصنوبر يعد من أفضل منتزهات البيروتيين، وفيه أشجار ملتفة من نوع الصنوبر المسمى الصنوبر الثمري، ويخطىء من يعزو بداية غرسه إلى الأمير فخر الدين المعني الذي قصد فيه فيما زعموا أن يرد كثبان الرمال المتحركة من أن تغمر مدينة بيروت، لأن مؤرخي الإفرنج في عهد الصليبيين ذكروه في مؤلفاتهم وقالوا إنهم كانوا يأخذون منه الأخشاب اللازمة لمنجنيقات الحصار وقد يكون الأمير فخر الدين قد زاد فيه. هذا وفي طرف هذا الحرج ميدان سباق الخيل وميدان صيد

الحمام، يتهافت سكان بيروت إلى مشاهدتهما والرهان وهذا في مباراتهما تهافتاً عجيباً، يقصدون من وراء الرهان المقامرة والربح اللذين كثيراً ما سودا وجوهاً وبيضا وجوهاً، والأسوداد وخراب البخت منهما كان وما برح أكثر. ويقع ميدان سباق الخيل أمام قصر المفوض السامي الإفرنسي، بنى هذا القصر المنشأ على الطراز المعرض الجميل الوالي العثماني الهمام عزمي بك أول الحرب العامة، فكان من نصيب الإفرنسيين.

وشرقي الحرج طريق دمشق، وفيه خط الترامواي القادم من المرفأ، وعلى جانبه البناء الذي سيتخذ داراً للآثار القديمة، وبعده المقبرة البروتستانتية ذات أشجار السرو الجبارة، ثم الكلية الطبية الإفرنسية، ولها حديقة نباتات متقنة، ثم المدرسة العلمانية الإفرنسية.

وغربي قصر المفوضية في الحرج بناء كلية المقاصد الخيرية الإسلامية، وهي في مكان حسن وسط أشجار الصنوبر، وحولها جامع بني سنة ١٣١٧ هـ وأمامها باحة لعب واسعة، تدرس العلوم الثانوية تدريساً متقناً وتعد الناشئة المسلمة إعداداً قومياً صالحاً وشرقي المدرسة العلمانية حي الأشرفية وفي دير سيدة الناصرة، وهو ذو بناء فخم كأنه من حصون العصور المتوسطة، شيد فوق قمة شاهقة، يطل الواقف على مناظر غاية في الروعة والامتداد. لاسيما إذا كان الوقت مساء أو صباحاً ونشرت الشمس أشعتها الذهبية على تلعات لبنان وقممه. فيرى الواقف حينئذ حتى مسافات غاية في البعد أدق المناظر الخلابة. ففي الشرق والجنوب ترتفع تدريجياً أسناد لبنان ومدارجه وتلعاته الخضراء النضرة بفروعها وغراسها وبصخورها الرمادية القاتمة التي انتشرت عليها قرى عديدة على ارتفاعات مختلفة، يميزها الناظر بسهولة من قصورها وبيوتها الجميلة البيضاء وسقوفها القرميدية الحمراء البارزة بين خضرة الجبال ونضرتها الخلابتين. وهذه القرى هي من الجنوب إلى الشمال الشويفات وكفر شيما وبعبدا والحدث، وفوق هذه سوق الغرب وعاليه، وفي الشمال الشرقي بيت مرى الجاثمة فوق المرتفعات المشرفة على نهر بيروت، وهذا يظهر مجراه العميق بوضوح قبل هبوطه إلى السهل في شرقي مدينة بيروت.

وفي الشمال يرى خلج القديس جاور جيوس (أو الخضر) وقد رسم خطاً منحنياً ظريفاً على ضفة أهداب من الموج المزبد، ويمتد من مصب نهر بيروت إلى مصب نهر الكلب، فاقترب بذلك من الأسناد الأخيرة المجندة من جبل صنين. وفي شمال هذا الخليج على بعد لسان صغير من اليابسة يختفي مصب نهر إبراهيم وأخيراً في الجنوب الغربي نحو صياد حرج بيروت ذي الأشجار الصنوبرية الفواحة المكتظة فكأنه بحر من الزمرد تتلاطم أمواجه الخضراء، وتبلغ كثبان الرمال الحمراء الممتدة على الشاطىء، وفي الشمال على طول امتداد الساحل مدينة بيروت وقد صفت دورها وقصورها الجميلة المحفوفة بالحدائق الغناء.

وإذا نزل من دير سيدة الناصرة واجتاز شارع الأشرفية المتجه إلى الشرق يصل إلى خزانات شركة الماء، وإذا انحرف نحو الجنوب الشرقي يصل إلى حديقة معامل السيوفي المشرفة من ارتفاع غير يسير على نهر بيروت، وفيها مرتفعاتها ذات المناظر الخلابة، ولهذا القصد أيضاً من منتزهات بيروت، وإذا هبط وبلغ حي الراسقة وفيه مطرانية الروم الأرثوذكس وقصور وفيلات عديدة غاية في روعة البناء ووسعته أحيطت بحدائق كبيرة غناء . ويقطن هذا الحي الفخم أغنى الأسر وأوجهها من طائفة الروم الأرثوذكس كأسرة سرسق وبسترس. ثم يتجه نحو الغرب إلى أن يلاقي ساحة البرج التي بدأ منها.

ضواحي بيروت

١ ــ قناة زيبلة الرومانية

يغادر بيروت من طريق دمشق ماراً من أمام حرج الصنوبر وحي فرن الشباك، وبعد ٥كم المفترق الذي يبدأ منه الصعود إلى الجبل. وعند هذا المفرق الذي فيه أيضاً قبر الباشاوات متصرفي جبل لبنان، يترك طريق دمشق ويسلك مجازاً إلى اليسار وهذا المجاز يطل في امتداده على الوادي الخصب الذي يسيل فيه نهر بيروت، وتروي مزارع هذا الوادي وبساتينه النضرة قناة صغيرة جانبية تجر قسماً كبيراً من ماء النهر، وثمة كثير من أشجار الموز والبرتقال والبلح والتوت أو فوقها في الجلول

المرتفعة الزيتون. ثم ينحرف المجاز ويعبر نهراً صغيراً من روافد نهر بيروت ويمر فوق ضيعة اسمها الحازمية، وفيها طواحين عديدة، وعلى أكمة عرف الديك المشرفة على العدوة اليمنى يلحظ كنيسة قرية مكلس، ثم يصل بعد بضعة منعرجات إلى قناة زبيدة.

في الكم ٩ أطلال قناة رومانية جميلة من العهد البيزنطي، سموها خطأ باسم زبيدة ملكة تدمر، وليست منها في شيء وطول هذه القناة ٢٤٠ متراً. وكانت تتألف من ثلاث طبقات من القناطر وكان القصد منها إمرار مياه النهر إلى قناة الري القديمة المحفورة في أعلى المجرى على العدوة اليمنى والتي كانت تنزل من ثم إلى بيروت مارة بالعدوة اليسرى. والقنطرة المتوسطة المرتكزة على النهر هي الآن متهدمة ولا يزال على العدوة اليسرى قنطرة واحدة من الطبقة الأولى وثلاث قناطر من الطبقة الثانية، وعلى العدوة اليمنى ثماني قناطر من الطبقة الثانية. أما الطبقة الثالثة التي كانت تحمل مجرى الماء فقد تهدمت بالكلية. ويلحظ الزائر الأحجار المنحوتة الجميلة التي كانت في بناء هذه الطبقات وفتحة مجرى ماء القناة، التي هي في هذه الجهة تحت الأرض، يمكن العثور عليها بسهولة على العدوة اليسرى، وعمل هذه القناة جد متقنة وهي مغطاة ببلاط موضوع على شكل جملون وقد ثقب بناة هذه القناة لها ثقباً، فتحوا له اثني عشر بئراً من أعالي مدرج صخري ولا يزال يرى الواقف في العدوة المقابلة القناطر التي كانت فوق هذه الآبار.

عودة - يستمر المجاز نحو ١ كم ويصل إلى ضيعة اسمها (الجديدة) فيها طواحين وأهلها يرتزقون بصيد السمك، لأن مياه نهر بيروت غنية بالسمك، ومن ثم يسلك طريقاً يعبر نهر بيروت عند جسر الباشا. وعلى مقربة من هذا حديقة جميلة تعد من منتزهات بيروت تدعى (جنينة رستم باشا) أحد متصرفي لبنان السابقين، وضريحه على حافة طريق دمشق وفي هذه الحديقة مقهى، وثمة أشجار غريبة المنشأ والحجم والشكل، منها شجرة البانيان أو تين الهند، التي تتدلى أغصانها وتنفذ في الأرض ثم تنمو، ومنها شجلرة السكوا إحدى جبابرة الفصيلة الصنوبرية، ومنها الميموز أو غير ذلك. وتحت ظلال هذه الأشجار قعدة منعشة نزهة يقصدها البيروتيون.

في الكم ١٥، إما أن يسلك الطريق المار بسن الفيل، أو الطريق الذي على اليمين المار بالدكوانة والمتصل بطريق بيروت - بيت مري، وفي الدكوانة مشاتل للغراس متقنة.

في الكم ١٧ حارة الشيخ، وفي الكم ١٨.٥ الجديدة، قرية فيها سراي حكومة اتخذت مأوى للعجزة، وفيها يلاقي الطريق القادم من طرابلس إلى بيروت.

٢ ــ عاليه ــ صوفر والرجوع عن طريق حمانا

يغادر بيروت من ساحة البرج وطريق دمشق، فيصل في الكم ٢ إلى حي فرن الشباك، وفي الكم ٣.٥ يجتاز الطريق السكة الحديدية ويغادر كل الساحل. في الكم ٤.٧ يترك على يساره طريقاً يتجه نحو جسر الباشا (تقدم ذكره)، في الكم ٥ قرية الحازمية، على اليمين وضمن كشك سور ضريحي واصيا باشا وفرتكو باشا متصرفا جبل لبنان، وفي كشك ثانٍ ضريح متصرف مسلم اسمه محمد باشا، ووراءهما مقبرة مسورة تحضن بعض الأسر في هذه الأنحاء وعلى اليسار مجاز يذهب إلى قناة زبيدة، وعلى اليسار طريق يصل بعد ٤ كم إلى بعبدا.

بعبدا بليدة، علوها ٢١٠ متراً وسكانها ٢١٨٢، كانت المقر الشتوي لمتصرف لبنان الصغير، تتصل ببيروت بالسكك الحديدية، وفيها منظر جميل جداً يشرف على بيروت وبحرها. وفي بعبدا سراي جديدة من عهد المتصرفين ذات طبقات وحجرات عديدة، لم تعد لازمة بعد نقل عاصمة لبنان إلى بيروت، فاتخذوها مدرسة للدرك وسراي أخرى قديمة اتخذوها لموظفي إدارة المساحة.

عودة، بعد قبر الباشا يشرع الطريق بتسلق أسناد لبنان. وثمة منظر جميل يمتد نحو كثبان الرمل الحمراء في الساحل، في الكم ٦.٥ العصفورية، على اليسار، وفيها مستشفى للمجانين بناه رجل إنكليزي من أهل الخير وعلى اليمين معمل في الكم ٨.٥ منظر جميل نحو وادي نهر بيروت - في الكم ١١ قرية الجمهور، على اليمين طريق آخر يحاذي السكة الحديدية يصل بعد ٤ كم إلى بعبدا التي تقدم ذكرها في الكم ١٢.٥، يجتاز السكة الحديدية فوق جسر ويترك على اليمين طريقاً متجهة إلى قرية كبيرة اسمها (البسوس) اشتهرت بفاكهتها كالمشمش

اللوزي والخوخ وغيرهما، علوها ٤٥٠ متراً. في الكم ١٤ على اليسار طريق يتجه إلى عاريا والشويت والعبادية ورأس الحرف. وعاريا قرية جميلة قريبة من بيروت، لا يقصدها للاصطياف إلا أصحاب الملك فيها. في شرقها نبع وسط مغارة تسمى شق العجوز، وقريتا شويت والعبادية من المصايف القليلة الرواد وفي العبادية عين الجوز تقصد للنزهة لحسن المشاهد المحيطة بها في الكم ١٥ كحالة قرية ذات دور مبعثرة تمتد على مسافة ١ كم. في الكم يجتاز الطريق فوق السكة الحديدية، ومن ثم يزداد روعة المناظر الممتدة نحو بيروت وضواحيها والمتن وجبل صنين.

في الكم ١٨ يصل إلى أول بيوت عالية وبعد ١.٥ كم والمجاور من أمام محطة السكة الحديدية يصل إلى عالية في الكم ١٩.٥.

عالية - بليدة، سكانها ٣٠٠٠، علوها ٨٤٠ متراً، ذات دور وقصور وفيللات جميلة، اشتهرت بموقعها وبفنادقها الفخمة الكثيرة ونواديها العديدة المخصصة لهذا ولقربها من بيروت كانت وما برحت أشهر مراكز الاصطياف والمقامرة وأجلها شأناً في لبنان، فهي (مونت كارلو) جبل لبنان بحق. وفي فصل الصيف وأيام الحر ينتقل قسم عظيم من سكان بيروت ومتاجرها إليها، فتكتظ عالية بضعة أشهر وتزدحم الأرجل فيها من مختلف المنابت والمشارب، حتى أن للمفوض السامي الإفرنسي ولرئيس جمهورية لبنان، كما لكثير من أغنياء بيروت قصور ومصايف خاصة فيها. ومن عالية طريق يؤدي بعد ٤ كم إلى سوق الغرب، إحدى مراكز الاصطياف المشهورة.

ومن ثنية عين البنية يهبط الطريق تدريجيا نحو الكم ٨١ وفيه قرية حور تعلة، سكانها ٣٠٠ جعفريون. ومن هذه القرية مدق يتجه نحو الجنوب الغربي ويمر من عاريا والرميدة (وهي غير الرميدة التي في نهر معربون) فيصل إلى سرعين، التي يوجد فيها أطلال مبعثرة جداً لهيكل وثني روماني، وبيوت منقورة في الصخر. وعلى بعد قليل من هذه الخرائب نحو الجنوب مقبرة مهمة نابتة بين الصخور اسمها ضهر عقرة دابا تشرف عليها أطلال هيكل آخر. وقد اشتهرت سرعين بتربية دود الحرير واستحصال بزوره، وتأتيها قناة من نهر يحفوفة فتسقى بساتينها. وفي محل اسمه ظهر الدير على بعد نصف ساعة أكمة فوقها حصن ضخم الحجارة، وعلى بعد ١.٥

ساعة إلى الجنوب دير باسم القديس جاورجيوس وهو ضخم الحجارة أيضاً يقع في سفح وادي يحفوفة حيث ينساب نهرها مقابل قرية قنا القديمة التي لها سور من حجر، ومن الوادي إلى الدير نفق (دهليز) وفي جنوبي سرعين والخط الحديدي، وعلى الضفة اليسرى لوادي يحفوفه ضيعة ماسة، قامت على أكمة صغيرة فيها هيكل صغير تحول إلى كنيسة، وهناك حجر وضع في دعامة كتب عليه أن لخيوس الكمشيس شيد هذا الهيكل لزحل (ساتورن) لأجل خلاص القيصر الذي يرجح أنه مرقص اويليوس.

في الكم ٨٣ ***طاليا*** - في الكم ٨٣.٥ وعند مخفر طاليا يلتقي هذا الطريق بطريق بيروت بعلبك في الكم ٩٤.٥ تقريباً بعلبك.

بعد الخروج من عالية يستمر الصعود في طريق دمشق، ويتسلق الاعضاء الثانية لسلسلة لبنان، ويبدأ الأخضر والنبات في القلة. في الكم ٢٤.٥ محطة بحمدون، علوها ١٠٠٠ متر مصيف ذو شأن، وفيها نحو عشرة فنادق جميلة وإن كانت من الدرجة الثانية، ومقاهٍ واسعة، ومنها طريق يصل بعد ٢.٥كم إلى قرية بحمدون.

يترك في محطة بحمدون طريقاً يهبط إلى وادي حمانا الذي يسيل فيه نهر المتن ماراً بقرية القبلية ورويسات المظيلة ويلاقي بعد ٦ كم عند قرية القبة طريق عاريا حمانا الذي تقدم ذكره آنفاً.

في الكم ٢٩.٥ ***عين صوفر***، سكانها ٤٢٦، علوها ١.٢٨٠، قرية جميلة فيها فندق عظيم فخم من الدرجة الأولى وعدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية، وفيها لأكثر أسر بيروت غنى وترفاً فيللات بديعة، لأن علوها الشاهق جعل هواءها غاية في الجودة والنقاء ومنظرها نحو وادي نهر المتن السحيق يأخذ مجامع القلوب في امتداده ونضرته وخضرته وروعة الساحة الجبلية المدورة حوله الممتدة من جبل في الشرق إلى ظهور رأس المتن في الغرب.

بعد الخروج من صوفر يستمر في صعوده وفي إشرافه على وادي حمانا الأغن، في الكم ٣٣.٥ مخفر درك المديرج العلو ١٤٠٠ متر هنا يترك على اليمين طريق يذهب إلى عين زحلتا والباروك ودير القمر (مر ذكره) وإضافة تكملة الطريق الذاهبة إلى دمشق فيترك الاثنين وينحرف نحو اليمين ويهبط إلى الوادي فيصل في الكم ٣٧ إلى

مجاز يصعد في نصف ساعة إلى شلال شاغور حمانا وهو شلال فياض يهبط من علو، وعنده فندق جميل ومقهى يقصدهما المصطافون والمنتزهون بكثرة.

في الكم ٣٨ قرية حمانا، قرية حسنة، ومصيف جميل، تقصد حتى من دمشق لروعة مناظرها وجودة هوائها، علوها ١١٨٠، سكانها ١٥٠٠، أكثرهم موارنة، وهي في وسط زراعي توت، عنب، أشجار مثمرة، خضروات متنوعة، لها ساحة صغيرة فيها عين ثرة، وبعد حمانا طريقان على اليمين أحدهما يأخذ إلى قرية فالوغا، وهي مصيف جميل أيضاً، علوها ١١٥٠، والثاني إلى قرية قرنايل، وهذه أيضاً مصيف جميل، علوها ١١١٠، ومنها يستمر الطريق في الهبوط إلى قرية زبدين ثم إلى قصر وادي جامينا أحد روافد نهر بيروت، ثم يصعد إلى قرية المتن ثم إلى قرية المروج وبعدها إلى ظهور الشوير والشوير.

بعد مغادرة بيروت من ساحة البرج، يصل إلى طرف بلدة عالية وفي عالية مسجد حديث جميل ومن ثم يستمر الطريق في صعود وتقل الأشجار والنباتات. في الكم ١٩ مزرعة مشرا. في الكم ٢١,٥ على اليسار خان خراب. في الكم ٢٤,٥ منظر رائع على الوادي نهر المتن السحيق الذي على يسار الطريق الهابط إلى وادي نهر المتن.

بعد مغادرة بيروت على اليسار طريق يهبط إلى وادي نهر المتن ويتصل في الكم ٤ بطريق عاريا. حمانا ماراً بقرية القرية في الكم ٥، محطة بحمدون التي علوها ١٠٠٠ متر، موقف قطار ثم يجتاز الطريق السكة الحديدية ويترك على اليمين طريق يوصل بين بحمدون المحطة وبحمدون القرية ويفضي إلى نهر القاضي.

في الكم ٢٧,٥ على اليسار فندق رويسات. في الكم ٢٩,٥ فندق عين صوفر الكبير (العلو ١٢٨٠ متراً) بعد الخروج من صوفر يستمر الطريق في صعوده وفي إشرافه على الوادي السحيق المسمى بوادي نهر المتن. وثمة مشهد بهيج ورائع جداً على هذه الساحة الجبلية المدورة الخضرة النضرة الآخذة بمجامع القلوب، المؤلفة من جبل الكنيسة في الشرق وسلسلة مرتفعات المتن في الوسط.

في الكم ٣٢,٥ ممر فوق السكة الحديدية التي لها في قرية نفق كبير تحت جبل شاهق.

في الكم ٣٣.٥ مخفر درك المديرج العلو ١٤٠٠ متر هنا على اليمين طريق يذهب إلى عين زحلتا والباروك وبيت الدين، وعلى اليسار طريق إلى حمانا وفالوغا وقرنايل وتخرج هنا السكة الحديدية من النفق وتبقى على اليمين ثم يصعد الطريق في منعرجات على يسارها هنا أسناد جبل الكنيسة وعلى يمينها أسناد جبل الباروك، وتجتاز في الكم ٣٥ على علو ١٥٢٤ عقبة ظهر البيدر وفي ذروة هذه العقبة خان قديم خراب وترى تحت الطريق محطة القطار. ثم تدخل السكة الحديدية تحت نفق بنوه حديثاً من الإسمنت للتوقي من الثلج الذي يتراكم هنا في إبانه بكثرة هائلة عطلت سير القطار أياماً وأسابيع.

في الكم ٣٩.٥ مخفر ظهر البيدر للدرك اللبناني ذو بناء كبير وجميل ومن ثم تبدأ الطريق بالهبوط وتخرج السكة من النفق، ويظهر فجأة سهل البقاع المسدود من الشرق بسلسلة لبنان الشرقي ومنظره هنا في النهاية من الجمال لانبساطه وتنوع الوان حقوله الصفراء والخضراء والحمراء وانتشار القرى المتعددة في الوسط وحوله.

البقاع سهل فسيح أو أخدود عظيم يمتد بين سلسلتي لبنان الغربي ولبنان الشرقي على علو ٩٠٠ ـ ١٠٠٠ متر عن سطح البحر وقد سد هذا السهل في جنوبه بشعب جبال نومان جزين التي يمر منها نهر الليطاني بصعوبة، لكن الأخدود يستأنف امتداده من بعدها حتى بحيرة طبريا وغور الأردن إلى أن ينتهي ببحيرة لوط.

في الكم ٤٥.٥ جسر تحت السكة الحديدية قبل الوصول إلى قرية المريجات (علوها ١١٩٨ متراً)، وفيها محطة للقطار، هواؤها جيد جاف جداً، بعض مسلمي بيروت لهم فيها دور جميلة ومعامل للخزف.

في الكم ٤٨.٥ على اليسار في سفح قرية جديتا.

في الكم ٤٩.٥ على اليمين طريق يذهب إلى الجنوب وينتهي بفلسطين ماراً بقب إلياس ومشغرة وجديدة معودةيون.

في الكم ٤٩.٧ على اليسار طريق ينتهي بعد ١.٥ كم إلى قرية جديتا وفيها محطة قطار يقصدها بعض مسلمي بيروت للاصطياف.

في الكم ٥١.٥ شتورا، قرية صغيرة متفرقة البنيان، علوها ٩٠٠ متر، مركز ذو شأن لالتقاء الطرق الآتية من بيروت ودمشق وزحلة وبعلبك وجديدة معودةيون، وفيه

دور وفنادق ومقاهٍ عصرية جميلة، وفي قربه نهر صغير ينبع عن كثب بسببه الأشجار والغياض الظليلة في شتورا. واشتهرت أيضاً شتورا بخمورها الجيدة التي تصنع في معامل كسارا للآباء اليسوعيين في قربها ومعامل خمور لأناس آخرين إفرنج ولبنانيين. في الكم ٥٣.٥ جسر على نهر جلالة أحد روافد الليطاني يترك بعده طريق يذهب بعد ٣ كم إلى سعد نايل قرية إسلامية فيها محطة قطار ثم يترك على اليمين قرية تعنايل وفي قربها دير زراعي كبير للآباء اليسوعيين أسس بعد حوادث سنة ١٨٦٠ وفيه حقول وكروم وغياض ومشاتل فنية واسعة.

في الكم ٥٧.٥ يمر الطريق على أول جسر نهر البردوني القادم من زحلة ثم على جسر ثانٍ نهر الليطاني وملتقى هذين النهرين في جنوبي الطريق بمسافة قليلة.

وفي الكم ٥٩.٥ على اليسار وسط السهل قرية كبيرة "بر الياس" إسلامية اشتهر بعض أهلها بتربية عتاق الخيل دورها المكتظة من اللبن محيطة بتل قديم، تظهر مئذنة المسجد من بيروت، وعلى اليمين على بعد نحو ٢ كم قرية المرج.

في الكم ٦٠.٥ مكان اسمه دير دنون، على يسار الطريق بناء صغير حديث، هرمي الشكل، ذكرى بدء عمليات التجديد المثلثية لتخطيط خارطة بلاد الشام، وبعده طريق يذهب إلى رياق ١٤ كم ويتبع اعضاد لبنان الشرقي ويمر من أسفل دير الغزال، وفيه أطلال هيكل قديم وقطع أعمدة مكسرة. في الكم ٦٠.٧ جسر من الإسمنت على نهر الفرير أحد روافد الليطاني، منبعه من عيون. ويترك على اليسار طريقاً يذهب إلى هذه العيون وعلى اليمين طريقاً يذهب إلى قرية الاصطبل. في الكم ٦١.٥ على اليسار حوش مزرعة خاصة رشدي بك حفيد درويش باشا وهو أكبر ملاك في البقاع. في الكم ٦٢.٥ على اليسار أكمة صخرية في قمتها مزار النبي عزيز يقصده مسلمو هذه الرباع في يوم خاص ويقيم مشايخ الطرق حفلاتهم يومئذ. في الكم ٦٣.٥ طريق يذهب إلى عيون عنجر.

عيون عنجر. مجاز ٢ كم. يمر المجاز أولاً بأطلال عظيمة دارسة بقي منها سور كبير مستطيل الشكل طوله نحو ٢٠٠ متر. هذه الأطلال هي بقايا شاليس لبنان القديم. في داخل هذا السور يلحظ آثار بلاط عدة طرق وبضعة أعمدة وأنقاض مختلفة. كانت شاليس هذه عاصمة مملكة تمتد من البقاع إلى ابطوريا (حبيدور

حوران) وكانت تابعة لبطلاوس ابن مشة وإلى ابن ليزانياس المقبري نقل عاصمته فيما بعد إلى ابيبلا (سوق وادي بردى) وفي عهد الامبراطور كلوديوس اعطيت شالسيس إلى هرودوس حفيد هرودوس الكبير، ثم انتقلت إلى يد هرودوس غريبا إلى أن ألحقت بالمملكة الرومانية. ثم يصل المجاز إلى عيون عنجر، وهو نبع نهر الليطاني الأصلية تنفجر من حوض واسع مياهه راكدة في سفح لبنان الشرقي. وتمتد أنقاض أحجار أثرية ضخمة تدل على أن هذا مكان عبادة في العصور القديمة وكان انفجار الماء قديماً غزيراً جداً لدرجة أنه من القرن ١٤ كانت تؤلف بحيرة حقيقية تشمل كل أراضي قرى الاصطبل والمرج، وربما كانت تصل إلى تل الأخضر وفي الأساطير العربية أن سفينة نوح استقرت في عنجر. والأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق صرف مياه هذه البحيرة وعمل لها مجاريَ تنفذ إلى الليطاني وحول قاعها المجفف إلى أراضٍ زراعية وذلك بإشارة علاء الدين بن صبح البقاعي فعمر فيه.

في الكم ٦٥ يلحظ على اليمين قرية مجدل عنجر وقد سميت بذلك تمييزاً لها عن بقية المجادل كمجدل شمس وغيرهما، قرية جميلة متجهة مبنية في السفح الشرقي من أكمة ذات سنامين بينهما باحة مجوفة برزت من وسطها مأذنة المسجد.

ويظن أن كلمة مجدل تدل على وجود حصن قديم ففي ذروة الأكمة التي في شمال القرية يرى أطلال هيكل وثني بدله العرب إلى حصن فأعمدة الرواق الأمامي الذي في الوجهة الشمالية الشرقية قد تهدمت وامتدت أنقاضها على الأرض أما السيللا Cella فلا تزال تامة كلها ويرى البلوكات الضخمة جداً (الجبارية) التي تؤلف أسس الجدران. ومن فوقها أحجار من النوع المحدب المنسوب للأسوار. أما الباب الخراب فلا يزال فيه عضاوتان من القطع الواحد. وكان داخل الهيكل مزداناً بأعمدة ذات تيجان من الطراز الأيوبي مع كورنيش عظيم وأحجار بين الأعمدة كما هو الحال في هياكل بعلبك وتدمر، وطراز بناء هذا الهيكل يدل على أنه سابق لعهود هياكل المدن المذكورة وربما قبل عهد هيرودوس، ومن هذه الأكمة يشرف على منظر رائع نحو كل البقاع الممتد القائم نحو الشمال الغربي والذي في الجنوب يحدث المضيق الضيق الذي يمر منه الليطاني وفي الجنوب الشرقي ترتفع ذروات جبل الشيخ المكللة بالثلوج.

ومن الهيكل المذكور يمكن الوصول بعد ٤٥ دقيقة في الجنوب الغربي وعلى المنحدر الغربي للأكمة إلى قرية الركوة، فيها أطلال هيكل آخر أصغر من الأول، فيه تيجان أعمدة كورنثية ومغاور منقورة في الصخر فيها نواويس.

في الكم ٦٧ يترك على اليمين الطريق الذاهبة إلى راشيا ٣٢ كم إلى الجنوب الغربي يتبع الطريق وادي الحرير المحصور بين آكام مزدانة بأشجار السنديان. بعد ١ كم على اليمين منظر جميل نحو مجدل عنجر إلى بعد ٣ كم السويرة قرية مسلمة في سفح الجبل. في الكم ٤ على اليمين أكمة فوقها ضريح ذو قبة لأحد الصلحاء وتفترق هذه الأكمة عن أخرى تماثلها بحفرة كبيرة مغروسة منحدراتها بالأشجار المثمرة، وعلى ذروة هذه الأكمة الثانية الشاهقة ربضت قرية (السلطان يعقوب) كأنها عش نسرٍ حقيقي، تعلو ١٤٠٠ متر اشتهرت بصناعة ضفر الحصر التي تعمل من الأقصاب.

في الكم ٨ على اليسار قرية حمارا، على الطريق مخفر للدرك، في الكم ٩ يهبط الطريق، هنا منظر على الوادي في الجنوب. في الكم ١٠ طريق على اليسار يأخذ بعد ٢ كم إلى قرية عيتا الفوقا.

في الكم ١٤ مضيق الفالوج مكان مخيف خطر، حدثت فيه مذبحة الجند المصري من قبل شبلي العريان وأخرى إبان الثورة السورية الكبرى ١٣٤٤/١٩٢٥ عدة معارك بين الثوار الدروز والجند الإفرنسي القادم لنجدة قلعة راشيا المحصورة، وكانت الدائرة في الغالب على الجند وقد أقيم بعد لحفظ هذا الممر فوق المرتفع الذي يقع شرقي الطريق مخفران عسكريان يصلهما إلى الطريق مجازان وثمة يلمح على يمين الطريق أطلال دائرة، ويترك على يمين الطريق أيضاً مجازاً يتصل بالطريق الذاهب من شتورا إلى طبريا.

(على يسار هذا المجاز وفي صدر الجبل مقبرة واسعة فيها نحو ٣٠٠ قبر في الكم ٧ قرية كامد اللوز التي كانت مدينة ذات شأن، هو يظن أنها هي المذكورة في رقم تل العمارنة، وبعدها في الكم ٧ على اليسار قرية جب جنين في المنتهى الشمالي لهضبة تفرق بين وادي التيم ووادي نهر الليطاني، في الكم ٨ جسر على الليطاني. في الكم ١٣ قرية كفريا (على الطريق الذاهبة من شتورا إلى طبريا).

عودة . ثم بعد المضيق تصل إلى نقطة خط تقسيم المياه ومن هنا فصاعداً تصل كل المياه نحو الجنوب فتؤلف وادي التيم الذي يلتقي مع النهر الحاصباني فيؤلفان نهر الأردن الأعلى.

في الكم ١٦ على اليمين، أكمة مشرفة على الطريق يلمح فيها بوضوح قبران محفوران في الصخر، أحدهما أحيط بعمودين . في الكم ١٧، على منحدر الجبل قرية خربة روما، وعلى الأكمة اليمنى قرية البيرة.

في الكم ٢٢ منظر رائع نحو الطود الشاهق الرهيب الذي يؤلفه جبل الشيخ، ويلمح في سفحه على مرتفع قرية راشيا، على اليمين قرية محيدثة، جسر على نهير.

في الكم ٢٣ ينحرف الطريق نحو الشرق ويشرع بالصعود في الكم ٢٤ يلمح على اليسار فوق أكمة مرتفع قرية ظهر الأحمر . في الكم ٢٦ يترك على اليمين مجازاً إلى حاصبيا (٢٤,٥ كم).

ثم يتسلق الطريق منعرجاً ملآن بكروم العنب والتين ونصبت فوقه راشيا (كم ٣٢).

راشيا . قرية كبيرة سكانها ١٥٠٠ نصفهم دروز ونصفهم روم أرثوذكس في العهد العثماني تتبع ولاية دمشق، وفي عهد الاحتلال الإفرنسي ضمت قسراً إلى لبنان في جملة الأقضية الأربعة، وجعلت الآن مركز ناحية علوها ١٣٥٠ متراً بنيت فوق أكمة مشرفة على وادي التيم وهي قاعدة وادي التيم الأعلى إلى الشمال الغربي من جبل الشيخ، كانت مركز قضاء، وتحرس راشيا قلعة قديمة تدعى /برج الريش/ من بناء الأمراء الشهابيين. ولهذه القلعة ذكر في تاريخ الثورة السورية سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٥م حاصر الثوار الدروز الجند الإفرنسي الذي كان اتخذها قبل ذلك ثكنة واستبسلوا في مهاجمتها مدة أربعة أيام، إلى أن جاءتها نجدات قوية من الإفرنسيين وانقذتها، وضربت إذ ذاك أكثر دور راشيا وأحرقت ونهبت، ثم عاد سكانها بعد الهجرة فجددوا على التوالي نحو نصفها، ولا يزالون يعملون في تجديدها، وهي قد اشتهرت بهوائها النقي الصحي.

في باحة القلعة بناء تذكاري للضباط وللجنود الذين قتلوا في معارك راشيا، ولهذه القلعة منظر رائع نحو جبل حرمون.. وجعلت في سنة ١٩٤٢ معتقلاً لبعض الأحرار الدمشقيين بقوا فيها مدة.

ترتبط راشيا بمجاز صالح ٣٠.٥ كم إلى حاصبيا وبآخر ١٨ كم إلى طريق راشيا ـ طبريا وبثالث طريق دمشق بيروت يمر بدير العشاير، ومستنقع قرية غيما ويمكن الوصول أيضاً إلى دمشق عن طريق زحلة وقطنا.

الصعود إلى جبل الشيخ ـ ٤،٥ ساعة، مصعد راشيا أبعد من مصعد حاصبيا، لكنه أسهل، فبعد الخروج من راشيا يهبط إلى الوادي برهة ثم ينحرف إلى اليسار، في منتهاه (بعد ساعة) يدخل في مضيق موحش، منه مبدأ الصعود الحقيقي. وهذا الصعود شاق ومجهد جداً، لفقدان أي مجاز مخطط، فتارة يتبع الصاعد مجرى مسيل، وتارة يتسلق منحدرات عمودية شبه أدراج حلزونية، يتقى فيها انهيار الصخور بعد ٣ ساعات مغارة عظيمة، ومن بعدها ينحرف نحو الجنوب الغربي ويتبع صور الجبل ويترك على اليسار إحدى ذرواته، وبعد ٣ ساعات ٢٠ ق يصل إلى عين صغيرة يمكن أن يتوقف فيها ويستريح، لعدم وجود ماء بعدها ثم بعدها بساعة يصل إلى الذروة العليا من جبل الشيخ ٢٨١٤ متراً.

وقضاء راشيا صغير المساحة يحده من الشمال قضاء زحلة ومن الشرق قضاء وادي العجم ومن الجنوب قضاء معودتيون ومن الغرب قضاء زحلة وعلى مسيرة نحو ثلث ساعة فيها مستنقع عجا القريت من قرية صغيرة بهذا الاسم وهو مجمع المياه الجارية إليه والمنجسة من جوانبه وتكثر فيه حمى البرداء ويموت في كل سنة مئات من سكان القرى المجاورة.

تتبعه ١٦كم قرية وسميت ***راشيا الوادي*** تمييزاً لها عن راشيا الفخار التي في قضاء حاصبيا، وكان في راشيا قديماً منازل بني الأطرش وبني العريان الدروز.

غير أن ماءها قليل ومناظرها جميلة خاصة من أعلى الأكمة، وأهلها أشداء صحاح البنية يعمرون طويلاً ولنسائها جمال، ولهم حذق في الحدادة والصياغة وعمل القضامي، وأراضيها وعرة لكنها خصبة، وكرومها كثيرة وذات عنب جيد. ويظن أن راشيا لم تعرف قبل الصليبيين، وهؤلاء بنوا بها البرج الريش لصد العرب، وبعد

أن استخلصها الشهابيون منهم عمرت وكثر سكانها ومنها نشأ شبلي العريان الذي حاصر الحامية المصرية في قلعة راشيا ثم لحقها إلى نبع الفالوج وفتك بها فعودة إبراهيم باشا ودهم راشيا وخربها، ثم عادت إلى العمران بعد إبراهيم باشا، وكان الشهابيون حكامها إلى سنة ١٨٦٠ فكانت فيها الفتنة المشهورة وأحرق كثير من بيوتها وقتل كثير من الشهابيين، ثم تجدد عمرانها وصارت مركز قضاء في عهد ولاية سورية إلى أن جرت فيها ثورة ١٩٢٥ كما قدمنا، وأعيد عمرانها وجعلت مركز قضاء.

وادي التيم - من أحداثه في سنة ٦٨٣ أن المغول قصدوه وأحرقوا وأفحشوا، وفي سنة ٦٤٢ قصدته جموع الإفرنج وتصدى لهم الأمير عامر الشهابي وفرسان عشرية من استنجدهم من آل معن، والتقوا بهم في مرج الخيام ودحروهم فعظمت بعد ذلك إمارتهم.

عودة إلى طريق دمشق - ينفذ طريق دمشق في وادي الحرير الضيق المنحصر بين آكام سلسلة لبنان الشرقي، ويصعد تدريجياً - في الكم ٧٤.٥ تعلو حتى ١٨٨٣م الخشبة المكتوبة الدالة على الحدود بين حكومتي بيروت ودمشق، وهنا خط تقسيم المياه لسلسلة جبال لبنان الشرقية ومن ثم يبدأ الطريق بالهبوط ويدخل سهلاً فسيحاً لإدارة واسعة محيط اسمه سهل الجديدة في شرقه جبال صخرية شاهقة كعرف الديك المتطاول من الشمال إلى الجنوب تطل على سهل الزيداني قرى قريتا يبوس ومعدر وفي وسط السهل عند الكم ٧٨.٥ قرية جديدة يبوس، وثمة على الطريق مخفر للدرك الدمشقي (العلو ١٢٥٢ متراً)، مسيل ماء متدفق.

ثم يترك الطريق السهل المذكور وينفذ في واد ضيق على جانبيه جبال شاهقة جرداء، اسمه "وادي القرن" وهو أحد روافد نهر بردى، ولهذا الوادي الموحش ذكريات رهيبة فقد كان في الأزمان الماضية إبان فوضى الأحكام مكمناً لقطاع الطريق حتى يضرب به المثل وفي الكم ٨٥.٥ يخرج الطريق من الوادي المذكور، وثمة منظر جميل على اليمين نحو الآكام الشاهقة المشرفة على قرية البترونة - في الكم ٨٦.٥ جسر على وادي القرن الذاهب للقاء نهر بردى، ثم يتسلق الطريق (عقبة

بالطين) وهي على أكمة مرتفعة ترابية، فيها في الكم ٩٠.٥ أطلال خلوة درزية أقام الجند الإفرنسي حولها مخفراً ثم هجره. وهنا في هذه العقبة حدثت معركة ميسلون.

في الكم ٩١.٥ يترك على اليسار الطريق (٨ كم) الذاهب إلى محطة التكية ومصايف الزبداني وبلودان. ثم يبدأ الطريق بالهبوط وينفذ في وادي ميسلون إلى الكم ٩٣ وفيه خان ميسلون ومخفر درك وعين ماء ثمة وأضرحة الجنود الإفرنسيين الذين قتلوا في المعركة التي حدثت في ٢٤ تموز ١٩٢٠، وفي قربهم ضريح البطل الشهيد في تلك المعركة يوسف العظمة وزير الحربية في حكومة المرحوم الملك فيصل. يحتفل الدمشقيون كل عام في ذلك اليوم بزيارته.

من خان ميسلون إلى الجنوب الغربي مجاز دواب طوله ٦.٥ كم يأخذ إلى أكمة شاهقة كالمسلة واقفة بين فرعين لوادي القرن عليها أطلال (دير العشائر) فيه هيكل جميل جداً من الطراز الأبيوني، بني فوق سطح تلك الأكمة بابعاد ٤٠×٢٢م المنحوتة وزين بنقوش فاتنة بديعة في واجهاته الجانبية وحول الدير انتثر كثير من بقايا الأعمدة والأحجار.

وادي القرن ووادي بكة ووادي فعرة ووادي يحفوفة كانت ممكن للصوص في العصور السابقة.

في الشرق وعلى سهل الجديدة في الغرب، وفي سفحها الغربي عند طرف السهل ثلاث قرى صغيرة، أسماؤها معدر وكفير يبوس ويبوس في وسط السهل.. الخ وفي غربي هذه القرى هضاب وروابٍ فيها حراج سنديان صغيرة ممتدة إلى ما بعد وادي الحرير، لو تركت تنمو لأفادت كثيراً.

وإلى جنوبي هذا الوادي وادي بكة، حدثت فيه وقعة عظيمة بين إبراهيم باشا المصري والدروز فكانت الدائرة عليهم ومن حوادثه التاريخية أنه في شهر نيسان ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م مات فيه قافلة مؤلفة من أكثر من مائة شخص دفناً هم ودوابهم لشدة الثلج والبرد الذي داهمهم حينئذ.

من دير العشاير إلى راشيا ٢.٥ ساعة، في طريق وعرة ذات تلعات . في نحو ٢٠ دقيقة يتبع نحو الجنوب، واد هو الرافد الغربي لوادي الحرير. ثم يتسلق المنحدر الشمالي لوادي القرن، ثم يجتاز خلال ٤٥ دقيقة هضبة وعرة ثم ينحدر في عقبة

كـأداء فيصل بعد ١ ساعة و ٢٥ دقيقة إلى كفر فوق، علوها ١٠٧٠ متراً تقع في المنتهى الشرقي لسهل محصور بين جبال يحصل فيه في الشتاء بحيرة وثمة أطلال هيكل وكتابات يونانية وبعد ٣٠٠ متر نحو راشيا مسماة امرأة منقورة في الصخر الصلد ومقابر كفر فوق، ثم يصعد نحو ساعة نحو الجنوب الغربي فيصل بعد ٢,٥ إلى راشيا.

عودة - بعد خان ميسلون يدخل الطريق عند الكم ٩٤,٥ في واد ضيق يشبه وادي القرن قليلاً تاركاً مياه وادي ميسلون على يمينه - وفي الكم ٩٦,٣ بعد أن يخرج من ذلك الوادي يترك على يساره عند خان الديماس المندثر مجازاً صالحاً للسيارات يذهب نحو قرية دير قانون في وادي بردى وكرومها من العنب والتين الجيدين.

في الكم ٩٧,٥ ينحرف الطريق نحو الشرق في معاطف صعبة إلى أن يصل في الكم ١٠٠,٥ إلى صحراء الديماس وهي دارة واسعة منحصرة بين سلاسل من الآكام البعيدة على يسارها الجبال الشاهقة المشرفة على وادي بردى من شماله، وفي جنوبها الغربي الطود المعظم المسمى جبل الشيخ والتلعات الصاعدة نحوه، وفي شرقها جبل قاسيون وقد اختفت دمشق تحته. والطريق في صحراء الديماس يسير على خط مستقيم، وقد حف منذ بضع سنوات بالأشجار - في الكم ١٠٢,٥ على اليسار الغربي في محاذاة جبل هاشمة والواصل (سيأتي ذكرها) وفي أول هذا المجاز أرض العراد المشهورة في التاريخ بحدوث معارك بين ونبع وعين الدياسة التي يشرف عليها مصطافو قرية قدسيا.

في الكم ١١٠,٥ تهبط الطريق في واد أغن يفصل بين بساتين قريتي قدسيا والهامة ويشعر بروعة الظل الظليل والندى العليل اللذين عرفته بهما أرباض دمشق - بعد جفاف الطريق وتجرده، وثمة على يمين الطريق ويساره دور وقصور وسط في بنائها منتشرة بين الغياط والرياض الغناء وعلى بعد نحو ١ كم في بطن الوادي الذي يمر فيه نهر بردى قرية الهامة سكانها ٤٢٠، وثمة محطة السكة الحديدية، فإذا اجتاز سكة الحديد عند المحطة يلاقي نهر بردى الفياض بخريره وشدة جريانه.

في الكم ١١٥,٥ طاحونة كبيرة على نهر بردى وعلى بعد ٣٠٠ متر معامل الإسمنت الوطنية ذات المداخن السامية.

في الكم ١١٦.٥ قرية دمر سكانها ٤٠٠ ، فيها محطة السكة الحديدية ومخفر شرطة ، ومقاهٍ ومقاصف جميلة حول نهر بردى هي أجمل منتزهات دمشق وأكثرها إقبالاً في الصيف وثمة كثير من الدور والقصور على يسار الطريق كانت حتى القرن الماضي المصايف الوحيدة لأثرياء دمشق ثم هجرت لانتقال المصطافين إلى قرى الزبداني ولبنان، يدخل الطريق في مضيق منحصر بين جبال شاهقة جرداء ، في وسط نهر بردى وفروعه العديدة كيزيد وتورا وعلى ضفافها غياض الدلب والحور المكتظة والقصور والدور مما يجعل الطريق هنا روعة وبداعة تأخذ بالألباب. وفي الكم ١١٧.٥ يمر الطريق فوق السكة الحديدية وعلى جسر مشيد فوق أحد فروع بردى . في الكم ١٢٠.٥ الربوة وعليها أجمل أماكن منتزهاتها ، حفت بالمقاهي العديدة المنتشرة على اليمين واليسار في أسناد الجبل الهابطة نحو بردى وحول المسايل الدافقة والقنوات الجارية من بردى وفروعه ، وهنا يتسع الوادي فيمضي بين الرياض والغياض تاركاً على يمينه الطريق الصاعدة نحو قرية المزة ، وفي الكم ١٢١.٥ مخفر كيوان للشرطة ، وفيه على اليسار طريق يصعد نحو حي المهاجرين في سفح قاسيون ، وبعد قليل يصل إلى المرج الأخضر ، وعلى يمينه الثكنة الحميدية في مكان كان يدعى الشرف الأدنى يناوحه على يسار المرج الشرف الأعلى ، وعلى يسار الطريق ثكنات عسكرية ومشتل حكومي ومدرسة التجهيز الحديثة إلى أن يصل إلى دمشق في الكم ١٢٤.٥.